ابن الوزير
ودفاعه عن أهل الحديث

بقلم

د٠ أحمد محمود صبحى

هو محمد بن ابراهيم بن على بن المرتضى(*) ، كنيته أبو عبد الله ولقبه عز الدين ، ولد عام ٧٧٥ هـ بهجره الظهراوين باليمن وتوفى عام ٨٤٠هـ٠

نشأ فى بيت علم ، فأبوه هو صارم الدين ابراهيم بن على (ت ٧٨٢هـ) وأخوه الذى تولى تعليمه هو الهادى (ت ٨٢٢ هـ) والاثنان من كبار علماء الزيدية ولهما مؤلفات عديدة ، كما عاصر ابن الوزير بعض كبار علماء المذهب الزيدى ، وعلى رأسهم الامام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠ هـ) ٠

قرأ ابن الوزير على أكابر مشايخ صنعاء وصعده ، ثم سافر الى مكة طلبا للمزيد من العلم ، ومن شيوخه القاضى على بن عبد الله بن أبى الخير ، وقاضى قضاة الشافعية بالحرم المكى محمد بن عبد الله بن أبى ظهيره(**) الذى طلب منه أن يقلد الامام الشافعى فقال : لو كان يجوز لى التقليد لم أعدل عن

(*) ٠٠٠ ابن المفضل بن المنصور بن محمد العفيف بن مفضل ابن الحجاج بن على بن يحيى بن القاسم بن يوسف (الداعى الى الله) ابن يحيى (المنصور بالله) ابن أحمد (الناصر) ابن الامام الهادى يحيى بن الحسين الذى ينتهى نسبه الى الحسن بن على بن أبى طالب ٠

(**) ومن علماء مكة الذين أخذ عنهم الشيخ محمد بن أبى الخير القرشى الشافعى والشيخ محمد بن أحمد الطبرى والشيخ محمد بن أحمد ابن ابراهيم المعروف بأبى اليمن الشافعى والشيخ على بن مسعود الأنصارى المالكى وابن القطب القسطلانى وابن سلامه الشافعى وابن صالح الشيبانى والشريف أحمد بن على الحسنى الشهير بالفاسى ، وقد أجازوه فى التفسير والفقه والحديث والكلام وعلوم العربية ، راجع ابراهيم بن القاسم : طبقات الزيدية ، مخطوط ٠

تقليد جدى الهادى والرسى ، اذ هما أولى بالتقليد من غيرهما ، ومن شيوخه أيضا السيد على بن محمد بن أبى القاسم الملقب بجمال الدين الذى تعرض لأهل السنة ورجال الحديث بالنقد العنيف ، ولم يكن ابن الوزير يرى فى اختلاف المذاهب مبررا للتحامل ، فألف كتابه الضخم : (العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم) فى أربعة مجلدات ، ثم اختصره فى كتابه : (الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم) ، يقول الشوكانى(١) : ترسل عليه شيخه برسالة تدل على عدم انصافه ومزيد تعصبه ، فرد عليه ابن الوزير بكتابه العواصم والقواصم لم يؤلف فى هذه الديار اليمنية مثله ٠

والواقع أن هذا الموقف المنصف من زيدى تجاه أهل السنة ليس مجافيا لروح المذهب الزيدى منذ الصلة الوثيقة التى كانت تربط بين مؤسس المذهب الامام زيد وبين الامام أبى حنيفة والتى جعلت فقهاء الزيدية لا يجدون حرجا فى الاسترشاد بالفقه الحنفى فيما يجدونه من أجوبة على مسائل لم ترد فى مذهبهم ، غير أن التعصب سمة عصور التدهور ، ومن ثم ففى عدم رضى ابن الوزير على موقف شيخه مظهر لتجاوز العصر والتحليق فى آفاق أسمى ، وتلك صفة المجددين ، لا غرو أن يصفه الشوكانى(٢) بأنه يزاحم أئمة المذاهب الأربعة ومن بعدهم من الأئمة المجتهدين ، وأنه يزاحم أئمة الكلام من معتزله وأشاعرة فى مقالاتهم ، وأنه يتكلم فى الحديث بكلام أئمته المعتبرين ، وأن تبحره فى العلوم النقلية والعقلية يقصر عنه الوصف ، وأنه يسرد فى المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لب مطالعه ٠

ولا شك أن عدة عوامل قد ساعدت على اتساق أفق ابن الوزير وبعده عن التعصب وقربه من أهل السنة أهمها :

---

(١) الشوكانى : البدر الطالع جـ ١ ص ٤٨٥ هذا وقد زالت الجفوة بعد أن ألح عليه أخوه الهادى ألا يحتد فى خصومته الفكرية لشيخه وأن يرد له اعتباره ففعل ، وطلب شيخه من ابنه صلاح أن يقرأ علم المعانى والبيان على ابن الوزير ٠

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٠ ، ٩١ ٠

١ ـ أنه لم يقتصر فى تلقى العلم على علماء المذهب الزيدى ، وانما أخذ عن علماء المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعية ٠

٢ ـ انه كان قد اتجه فى أول مرحلة تلقى العلم الى دراسة علم الكلام، ولكن الخصومة العنيفة بين متكلمى الفرق وتكفير بعضهم بعضا قد جعله يعزف عن علم الكلام أول الأمر الى دراسة علوم القرآن والسنة ، يصف ابن الوزير حاله بالقول : أول ما قرع سمعى ورسخ فى طبعى وجوب النظر والقول بأن من قلد فى الاعتقاد كفر ، فاستغرقت فى ذلك باكورة علمى ، وما زلت أرى كل فرقة من المتكلمين تداوى أقوالا مريضة وتقوى أجنحة مهيضة فلم أحصل على طائل ، وتمثلت بقول القائل :

كل يـداوى سقيما من معائبـه فمن لى بصـحيح مابـه سـقم

فرجعت الى كتاب الله وسنة رسوله ، وقلت لا بد أن تكون فيهما براهين وردود على مخالفى الاسلام ٠

ويقول أيضا : وقد رأيت مصنفى كتب المذاهب ينتصر فيها المصنف لمذهب واحد فى القوى والضعيف والدقيق والجلى ، ولم يسلك أحـد منهم مسلك مصنفى كتب الاسلام ـ يقصد الفقه ـ التى تذكر فيها مذاهب أهـل الملة الاسلامية ، ويقوى فيها ما قوته الدلائل البرهانية سواء كانت لقريب أو بعيد أو صديق أو بغيض ، وكتب العقائد أحق بسلوك هـذا المسلك من كتب الفروع ، أما كون الحق واحـدا فصحيح ، ولكن لا يستلزم أن يكون الصواب فى جميع المواضع المتفرقة قد اجتمع لبعض الفرق الا ما حصل فيه أحد الاجماعات القاطعة من الأئمة والعترة ، فيجب الترجيح له والنصرة ، فاستخرت الله تعالى وقصـدت احياء هذه السنة الميتـة التى هى ترك العصـبية(١) ٠

فقوله هذا واضح الدلالة على اتجاهه لا الى ترك التعصب فحسب بـل فى التماس الحق حيثما كان ما دامت الحقيقة فى المواضع المختلفة من الأصول موزعة عليها وليست مجتمعة فى واحد منها ٠

---

(٣) ابن الوزير : ايثار الحق على الخلق ص ٣٠ ٠

٣ ـ ولم يكن ابن الوزير بطبعه مشتطا فى خصوماته ـ سواء الفكرية أو السياسية ، فكثيرا ما غلب عليه لين الطبع فيوؤب الى المصالحة وينـــأى عن الخصومة ، الأمر الذى دفعه الى أن يسلك ان فى قوله وان فى فعله طـريقا متميزا ، اذ آثر فى القول أن يؤلف بين آراء المتكلمين ، كما آثر فى الفعـل فى أخريات حياته أن يعتزل الناس ويؤثر الخلوة ويشتغل بالذكر والعبـــادة حتى وفاتـــه(*) ٠

على أن أخـــذه من المذاهب الأخرى وميله الى التوفيق بينها لا يعنى بحال خروجه على المذهب الزيدى ، فقد حدد الحق والصواب فيما أجمع عليه العترة اجماعا قاطعا ، وفى ذلك يصفه الشوكانى بالقول ، وهو فى عـداد أئمة الزيدية المجتهدين الذين لا يرفعون الى التقليد رأسا ، ولا يشوبون دينهم بشىء من البدع التى لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شىء منها ٠

مؤلفــــــــــاته :

١ ـ البرهان القاطع فى اثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع ٠

(ألفه فى رجب عام ٨٠١ هـ ، طبع بمصر عام ١٣٤٩ هـ) ٠

٢ ـ الحسام المشهور فى الذب عن سيرة الامام المنصور (مخطوط بالجامع الكبير مجاميع ٩٦ من ص ١٠٣ ـ ١١٣) ٠

(ألفه عام ٨٥ هـ دفاعا عن امامه على بن صلاح الدين الذى رأى بعض علماء عصره عدم أهليته للامامة) ٠

٣ ـ العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم (فى ٤ مجلدات رد فيه على شيخه جمال الدين الذى هاجم الاشاعرة ورجال الحديث وفيـــه يدافع ابن الوزير عن السنة وأهلها ، وقـــد وصفه الشوكانى بأنه يشتمل على فوائد فى أنواع العلوم لا توجد فى شىء من الكتب) ٠

٤ ـ تنقيح الأنظار فى علم الآثار (فى الحديث وفيه تعريف بفرق الزيدية) مجامع ٣٢ من ١١٠ ـ ١٧٩ المكتبة الغربية الجامع الكبير ٠

(*) دفن بمصلى العيد جنوب صنعاء ٠

٥ ـ الروض الباسم فى الذب عن سنة أبى القاسم ٠

(جزءان فى مجلد وهو مختصر العواصم والقواصم ، ألفه عام ٨١١ ، نشرته ادارة الطباعة المنيرية بمصر) ٠

٦ ـ رياض الأبصار فى ذكر الأئمة الأقمار والعلماء الأبرار ٠

٧ ـ التـــأديب الملكوتى ٠

٨ ـ قواعد التفسير النبوى (مجاميع ٩٦ من ص ٦٢ ـ ١٠٠) ٠

٩ ـ قبول البشرى بالتيسير لليسرى ٠

١٠ ـ فتح الخالق فى شرح مجمـــع الحقائق والرقائق (المكتبة الغربيـــة بالجامع الكبير (مجاميع ٩٦ من ص ١١٤ ـ ١٦٠) ٠

١١ ـ مجمع الحقائق والرقائق فى ممادح رب الخلائق مخطوط بمكتبة الجامع الكبير مجموع ١١ من ص ٨٥ ـ ٩١ ٠

١٢ ـ نصر الأعيان على شر العميان (فى الرد على أبى العلاء المعرى) ٠

١٣ ـ رسالة فى حصر آيات الأحكام الشرعية ٠

١٤ ـ أنيس الأكياس فى فضل الاعراض عن النـاس ٠

١٥ ـ ترجيح أساليب القرآن لأهل الايمان على أساليب اليونـان فى أصول الأديان (نشر بالقاهرة عام ١٣٤٩ هـ) مطبعة المعاهد ٠

١٦ ـ تكملة ترجيح أساليب القرآن ٠

١٧ ـ كتاب الأمر بالعزلة فى آخر الزمان (مجاميع ٧١ من ص ٥٢ـ٦٨) ٠

١٨ ـ ايثار الحق على الخلق فى رد الخلافات الى المذهب الحق فى أصول التوحيد (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر عام ١٣١٨ هـ ٠

١٩ ـ ديوان شعر فى التوسلات والرقائق وتقييد الشوارد العلمية ٠

دفاعه عن أهـــل الحـــديث :

سبقت الاشارة الى أن ابن الوزير ألف كتابيه « العواصم والقواصم »

ومختصره « الروض الباسم » للرد على شيخه جمال الدين الذى حمله التعصب على تجريح أهل السنة ورجال الحديث ، ولا يعد رد ابن الوزير انصافا منه للمحدثين فحسب ، بل انه عبر بذلك عن اتجاه يعد هو رائده اذ تابعه في ذلك بعض كبار علماء المذهب ألا وهو تفتح الزيدية على أهل السنة بعامة ورجال الحديث بخاصة ، وهو اتجاه لم يكن معروفا لدى الزيدية المشايعين للمعتزلة ٠

ولقد مكنت لهذا الاتجاه لدى ابن الوزير عدة أسباب :

١ ـ نفوره من علم الكلام لاثارته الشكوك ولكثرة المراء والجدل فيه، هذا النفور قد مال به الى من يرجحون الايمان والتسليم على الجدل والكلام ألا وهم أهل السلف ورجال الحديث ٠

٢ ـ ان اعراض الزيدية عن المحدثين ـ كما يريد شيخه جمال الدين ـ انما يعنى الاعراض عن حديث الرسول ، وانه من الخطأ القول بالرجوع الى أئمة الزيدية فى علوم الحديث ، ذلك أنهم لم يصنفوا فى معرفة صحيح الحديث ومعلوله ومردوده ومقبوله ما يكفى أهل الاجتهاد(٤) ، وانما الذين صنفوا فى ذلك كله هم علماء الحديث ، وليس لأئمة الزيدية فى ذلك تصنيف البتة ، والذى تعرض لذلك منهم انما تعرض لجمعه فقط ، أما الاسناد وعلم الجرح والتعديل وعلم العلل فليس للزيدية فى هذا الفن تأليف البتة ، والقول بالرجوع الى الزيدية فى الحديث كالقول بالرجوع الى علم الحديث فى معرفة الطب أو الى أئمة الزهد فى علم الأدب(٥) ٠

ولم يصنف من الزيدية فى الحديث غير القاضى زيد والامام أحمد ابن سليمان والأمير الحسين والامام يحيى بن حمزة ، وكتبهم خالية من الاسناد، وعن بيان من خرج الحديث من الأئمة ، وحتى لو خالف المحدثون الزيدية فى

---

(٤) ابن الوزير : الروض الباسم جـ ١ ص ١٢٠ والكلام فى الحديث مقسم على أربعة فنون : معرفة العلل ومعرفة للرجال ومعرفة علوم الحديث ومعرفة الحديث وطرقه ٠

(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

بعض الاعتقادات فقد أجمع أئمة الزيدية على قبول أخبار المخالفين،والا لضاع أكثر الحق من تصانيف الزيدية ٠

٣ ـ ولو اتهمنا رجال الحديث فى الحديث لبطل العلم بحديث رسول الله بالمرة ، تماما كما لو اتهمنا النحاة فى النحو ، واللغويين فى اللغة والفقهاء فى الفقه والأطباء فى الطب ، اذن لا يتعلم جاهل ولا يتداوى مريض ٠

٤ ـ ولا يؤاخذ رجال الحديث بأقوال الحشوية والكرامية(*) فى الاعتقادات ، كما لا تلزم الزيدية قول جهالهم من المطرفية والحسينية(**) ، بل ان نقاد الحديث وأئمة الأثر أعداء بطبيعتهم للحشوية ، لأن هؤلاء انما سموا كذلك لأنهم يحشون الأحاديث التى لا أصل لها فى الأحاديث المروية ـ أى يدخلون فيها ما ليس منها ، يقول نشوان الحميرى : انما سموا الحشوية بذلك لكثرة قبولهم الأخبار من غير انكار ، بينما مهمة المحدثين تنقية صحيح الحديث من مكذوبه ، فكيف ينسب اليهم معتقد خصومهم من تشبيه وحشو اعتقاد ونسبة الكبائر الى الأنبياء ٠

ويذكر ابن الوزير أسباب خصومة المعتزلة وبعض الزيدية بعامة والسيد جمال الدين بخاصة لأهل الحديث ويحددها فيما يأتى :

(*) الحشوية هم الذين يؤمنون بحشو الاعتقاد ، وأكثرهم بين رجال الحديث وذلك من أسباب نفرة المعتزلة والزيدية منهم ، من بينهم مثلا الدارمى (أبو سعيد) ، كان يؤمن أن عرش الله محمول على قرون الملائكة ! فى تفسيره للآية : «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، أما الكرامية فنسبة الى محمد بن كرام من مفسرى ومحدثى القرن الثانى وكان يميل الى التشبيه والتجسيم ويجيز على الأنبياء ارتكاب الكبائر ٠

(**) المطرفية نسبة الى رجل يقال له مطرف بن شهاب كانت له آراء متطرفة أثارت عليه أئمة الزيدية وعلمائهم منها أن الله ساوى بين الناس فى ستة أشياء : الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة ، وان الآجال ليست من الله الا من بلغ مائة وعشرين سنة فذاك هو العمر الطبيعى ، أما قبل ذلك فبسبب قتل أو مرض ، والأمراض ليست من الله ٠

وأما الحسينية فنسبة الى الحسين بن القاسم بن على العيانى ، ادعى أنه أعلم من رسول الله لأنه أكثر علما بعلم الكلام منه ! ٠

١ ـ ان المحدثين متصفون من وجهة نظر أصحاب النزعة العقلية من المتكلمين بالجمود وقبول الأحاديث على ظاهرها وترك التأويل ·

٢ ـ اعتراض على بعض الأحاديث من حيث السند ، وهـذه بدورها تنقسم الى قسمين :

(أ) قبول رجال الحديث للمراسيل(*) ولرواية بعض المجاهيل ·

(ب) قبول رجال الحديث لرواية بعض الذين يشـك فى عـدالتهم ، وهؤلاء على صنفين : صنف يشـك فى عدالته لموقفه المناوىء للامام على كأبى موسى الأشعرى وعمـرو بن العاص ، وصنف يشك فى عدالته لمآخذ دينية وخلقية عليه كالوليد بن عقبة ومروان بن الحكم ·

٣ ـ اعتراض على بعض الأحاديث من حيث المتن : وهـذه بدورها على صـنفين :

(أ) أحاديث تخالف آراء المعتزلة والزيدية: كالقول بالتجسيم والجبر ورؤية الله يوم القيامة والشفاعة لأهل الكبائر ·

(ب) أحاديث ظاهرها مستنكر وتبدو مجافية للعقل ·

١ ـ نعود الى الاعتراض الأول للرد عليـه ، وأعنى أن **المحـدثين متصفون بالجمود** بينما يتصف المعتزلة بالذكاء والفطنة ·

يقول ابن الوزير : تدعى الفلاسفة الذكاء والفطنة مثل ما يدعيه بعض المعتزلة ، وتعتقد أى الفلاسفة فى المسلمين كلهم ـ بما فيهم المعتزلة ـ مثل ما تعتقده بعض المعتزلة فى المحدثين ، ذلك أن المعتزلة ـ فى رأى الفلاسفة ـ غير ممارسين للعلوم العقلية على ما ينبغى بينما هم ـ أى الفلاسفة ـ قد انفردوا باستخراج علم المنطق وبشدة الغوص فى لطائف الغوامض ، فلا حجة

(*) الحديث المرسل : الأصل فى الحديث من ناحية سنده نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به الرسول مع الاتصال ، فان بلغ الحـديث فى روايته منتهاه وهو الصحابى الذى سمعه عن الرسول فهو مسند فان سقط منـه الصحابى فهو مرسـل ·

للمعتزلة على المحدثين بأكثر من حجة الفلاسفة على المتكلمين ، ان المحـدثين هم أهل العناية بحديث رسول الله ، وهذه صفة شريفة توجب توقيرهم ، لا وصفهم بالجمود ، ولم ينفرد المحدثون بترك الخوض فى علم الكلام بـل شاركهم فى ذلك جميع أئمـة الفنون كائمة الفقه والتفسير واللغة وسائر الفنون ، بل ان بعض علماء الكلام قد شاركوا المحدثين فى النهى عن الخوض فى علم الكلام كالجوينى والغـزالى والرازى(*) ، بـل ان شيخ المعتزلة أبا القاسم البلخى اثنى على عقيدة العامة وقال هنيئا لهم السلامة ، وكذلك الامام المؤيد بالله ـ وهو من أجل علماء الزيدية ـ كره التدقيق فى علم الكلام وحث على الاشتغال بالفقـه فى كتاب الزيارات ، ورجع يحيى بن منصور الحسنى ـ من علماء الزيدية ـ عن علم الكلام ونهى عن الخوض فيه ٠

وما ترك المحدثون علم الكلام لجمود فطنتهم وانماتركوه ايثارا لحديث رسـول الله ٠

٢ ـ الرد على الاعتراض الثانى المتعلق بسند بعض الأحاديث :

ان جواز قبول المراسيل هو مذهب المالكية والمعتزلة والزيدية ، وقد نص على ذلك أبو طالب فى كتابه المجزى والمنصور فى كتابه صفوة الأخبار(*) ،

(*) نسب الى الجوينى أنه قال فى أواخر أيامه : اللهم ايمانا كايمان العوام ، أما الغزالى فقد طالب المتعلم ومن بلغه حديث سبعة أمور : التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجـز ثم السكوت ثم الامساك ثم الكف ثم التسليم لأهل المعرفة ، وأما الرازى فقد قال فى آخر حياته :

نهـاية اقـدام العقول عقـال وأكثر سـعى العـالمين ضـلال
ولم نستفد من بحثنا طـول عمرنا سوى أن جمعنا فيـه قيـل وقالوا

(*) أبو طالب هو الامام المؤيد بالله أبو طالب يحيى بن أحمـد ابن الحسين الهارونى قام بالديلم وحارب القرامطة وكان من كبار علماء المذهب توفى عام ٥٢٠ هـ (راجع التحف شرح الزلف لمجد الدين الحسنى المؤيـدى ص ٩٤ ـ ٩٨) والمنصور بالله عبد الله بن حمزة (٥٦١ ـ ٦١٤ هـ ، تزيـد مصنفاته على أربعين مصنفا أشهرها كتاب الشافى فى ٤ مجلدات ـ المهذب ـ صفوة الأخبار (أو الاختبارات) ـ الجوهرة الشفافة جواب الرسالة الطوافة الى العلماء كافة فى أصـول الدين ـ الرسالة الناصحة فى الأدلة الواضحة (جزءان) ـ الدرة الثمينة ـ من تلاميـذه حميـد بن أحمـد المحلى (ت ٦٥٢) صاحب الحدائق الوردية فى مناقب أئمة الزيدية راجع : أئمة اليمن الجـزء الأول لمحمـد بن محمـد زبادة ص ٦٧) ٠

وقـــد أجمع التابعون على قبول المراسيل حسب قول ابن جـرير الطبرى ، ومذهب الشافعية قبول المراسيل اذا لم يعارضها مسند صحيح ، فاذا كان الجم الغفير من الأئمة من فرق الاسلام قد نصوا على قبول المراسيل فكيف ينكر المعترض على المحدثين ذلك ٠

وأما قبول رواية المجاهيل من العلماء أو من المسلمين فقد ذهب الى ذلك أئمة الحنفية وكثير من المعتزلة والزيدية ، وهو أحد قولى المنصور بالله فى كتابه هداية المسترشدين ، وهو الذى ذكره عالم الزيدية ومصنفهم وعابدهم وثقتهم عبد الله بن زيد العنسى فى الدرر المنظومة بعبارة محتملة الرواية عن مذهب الزيدية كلهم ، فكيف تنكر أيها الزيدى (يقصد جمال الدين) مانصب اليه جلة من أئمة الزيدية ومحققيهم ٠ وقد استندوا فى ذلك الى قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (الأنبياء : ٧) ، فالأمر القرآنى يدل على وجوب سؤال جميع العلماء عدا الفاسق منهم ٠

أما رواية الأحاديث عن بعض الصحابة ممن عرف بمناوأته للامام على أو من توقف عن موالاته ، فان مستند الشيعة فى اعتراضهم على هذه الرواية قول الرسول عليه الصلاة والسلام لعلى : (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق) ٠ فاذا كانت صفة النفاق قد لحقت من أبغض عليا ففى ذلك قـدح فى عـدالته ٠

يرد ابن الوزير أن ذلك الحديث متعلق بزمن الرسول فقط ، والا لحقت صفة النفاق بعض كبار الصحابة ممن حارب عليا ، كيف وقـــد شهد لهم الرسول بالجنة ، بل ان الخوارج وهم يبغضون عليا بل ويكفرونه لم يعدهم على نفسه منافقين مع عظيم ذنبهم ٠

ولا يشترط فى العدالة ترك جميع الذنوب ، ولكن العـــدل من اجتنب الكبائر وكانت محاسنه أكثر من مساويه كما قال الامام الشافعى ، وفى رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى : المسلمون عدول بعضهم على بعض

---

(١) ابن الوزير : الروض الباسم ، جـ ١ ص ٢٠ ، ٢١ ٠

فى الشهادات الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور ، **وقال عبد الله** ابن زيد من علماء الزيدية فى كتابه الدرر المنظومة : **العدالة أداء الواجبات** واجتناب الكبائر من المستقبحات(٦) ، واذا كان ذلك كذلك فالصحابة كلهم عدول الا القليل النادر ٠

أما أبو موسى الأشعرى فيدافع ابن الوزير عنه وعن صحبته ويبرر تصرفه يوم التحكيم ، وأما معاوية وعمرو بن العاص فقد رويت عنهماأحاديث فى الصحاح ، عن معاوية روى ثلاثون حديثا فى الاحكام وعن عمرو روى عشرة أحاديث فى الاحكام أيضا ، ولم يعترض عليها المعتزلة أو الشيعة(٧)٠

أما من يشك فى عدالته لمآخذ خلقية ودينية عليه ، فان بلغت حد الفسق ففى ذلك قدح فى عدالته والرواية عنه كما هو حال الوليد بن عقبة وبسر بن أرطأه(*) ، وأما الرواية عن مروان بن الحكم بعد معرفة المحدثين بجرحه وحاله وما اتهم به فانها لا تدل على تعديله ، وانما رووا عنه بعد الاعتماد على غيره، اذ الأحاديث المروية عن مروان قد روتها كتب الصحاح الستة لأنها مروية عن الثقات ، هذا وقد روى مروان عن عثمان وعلى ، وانما يعترض على المحدثين لو أنهم رووا حديثا فى الحلال والحرام وحكموا بصحته ولم يكن لهم طريق فى العلم به غير مروان ٠

٣ ـ اعتراض على متن بعض الأحاديث :

(أ) أحاديث تخالف آراء المعتزلة والزيدية فى الاصول كالتجسيم والجبر والرؤية يوم القيامة والشفاعة لأهل الكبائر ٠

يتخذ ابن الوزير بصددها ثلاثة مواقف :

---

(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨ ٠

(٧) المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٣ ـ ١٢٠ وذلك أن القاعدة العامة : يرفض الحديث المروى عن صاحب الهوى أو الرأى أو المذهب السياسى فيما يوافق هواه أو رأيه أو مذهبه أما غير ذلك فلا حرج ٠

(*) الأول متهم بشرب الخمر وبالزيادة فى ركعات الصلاة وكان من أسباب ثورة الناس على عثمان ، أما الثانى فقد ذبح ابنى عبيد الله ابن العباس الطفلين فى حملته على اليمن لاستخلاصها من حكم على لصالح معاوية ٠

الموقف الأول : التأويل فى حالتى التجسيم والجبر ، انهم ـ أى المعتزلة والزيدية ـ اذا كانوا يلجأون الى التأويل فى الآيات التى ظاهرها التشبيه أو الجبر ، فلم لا يفعلون مثل ذلك فى الحديث ، ولم يتسرعون الى التكذيب وفيه تفسيق للمحدثين بينما فى التأويل تصديق لهم ٠

الموقف الثانى : ترجيح رأى أهـل السنة ورجال الحديث على رأى المعتزلة والزيدية كما هو الحال فى مسألة الرؤية ـ رؤية الله يوم القيامة ـ لتواتر الأحاديث عنهـا ٠ انهم يطعنون فى قيس بن حازم راوى الحـديث : (ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة التمام لا تضامون فى رؤيته) وذلك لبغضه عليا ، ولكن ليس هذا هو الحديث الوحيد فى الرؤية وانمـا الأحاديث عنها مستفيضة ورواتها كثيرون ، على رأسهم امام الجميع على ابن أبى طالب ، وأمام المعتزلة وأهل السنة أبو بكر الصديق ثم ابن عباس وحذيفه ابن اليمان وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وابو هريرة وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وجابر الانصارى ، ومن التابعين سعيد بن المسيب والحسن البصرى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبيـر وطاووس وعبد الله بن المبارك وأئمة المذاهب الأربعة ، كل هؤلاء قـد روى عنهم القول بالرؤية ، لقد روى الصحابة أكثر من ثمانين حديثا فى الرؤية ، فى صحيحى البخارى ومسلم ثلاثة عشر حديثا منها ، بل ان بعض المحدثين قد رووا أحاديث الرؤية عن طريق زيد بن على رضى الله عنهما(٨) ٠

الموقف الثالث : التوفيق بين الرأيين وذلك ببيان أن لا تعارض بـين العام والخاص كما هو الحال فى مسألة الشفاعة لأهل الكبائر ٠

يلاحظ ن هذه المسألة ليست من مسائل الخلاف الرئيسية بين المعتزلة والزيدية من جهة وبين الأشاعرة وأهل الحديث من جهة أخرى ، فمن بـين المعتزلة قائلون بالشفاعة لأهـل الكبائر كغيـلان الدمشقى ، كذلك من بين الزيدية كأحمد بن يحيى المرتضى ٠

---

(٨) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧ ، ١٥٧ ٠

ولا تعارض بين الأحاديث الدالة على خروج أهل الاسلام من النار وبين آيات الوعيد الدالة على خلود أهل النار فى النار ، ذلك أن العموم والخصوص لايتناقضان عند جميع فرق الاسلام لأن القرآن مشحون بالعموم والخصوص، فالله قد نفى الخلة والشفاعة فى قوله تعالى : « فى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » (البقرة : ٢٥٤) ثم قيده فى قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » (الزخرف : ٦٧) وقال : « لا يشفعون الا لمن ارتضى » (الأنبياء : ٢٨) ، فأثبت الخلة والشفاعة لمن اتقى ولمن ارتضى بعد أن نفاهما مطلقا ، فما ورد فى خروج أهل الاسلام من النار من صحيح الأخبار المتواتر معناها عند العلماء الأخيار لا يتعارض مع آيات الخلود فى النار للقاتل عمدا أو المصر على الربا(٩) ٠

أما الصنف الثانى من الأحاديث التى اعترض عليها بعض المعتزلة والزيدية ــ أو أصحاب النزعة العقلية عموما ــ فهى التى يبدو ظاهرهامستنكر لدى العقل ، يرى ابن الوزير انه لا ينبغى رد هذه الأحاديث ، وانما من مراتب التأويل حمل الكلام على التخيل ، وهو رؤية مثال الشىء فى اليقظة ، وهو كالمنام الا أنه يكون فى اليقظة ، من ذلك ما روى من أن موسى لطم ملك الموت وفقأ عينه حين جاءه ، يقول ابن قتيبه : اذهب موسى العين التى هى تخييل وتمثيل وليست على حقيقة خلقته الروحانية فعاد كما كان لم ينقص منه شىء ، واعتراض المعتزلة ليس فحسب فى نسبة عين يمكن أن تفقأ لملك الموت وأنه ان جاز عليه العور جاز عليه العمى وانما لما فى فعل موسى من اعتراض على مجىء أجله بينما الملك مأمور من ربه(١٠)

يرد ابن الوزير أن الأنبياء ينبغى أن يستأذنوا فى قبض أرواحهم وهو ما لم يفعله ملك الموت مع موسى فلما تنبه عادت اليه عينه المتخيلة ٠

---

(٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٨ ٠

(١٠) نفس المرجع جـ ٢ ص ٥٨ ٠

بصدد مثل هذه الأحاديث التى أثارت اعتراض المعتزلة على متنها راجع : ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، وراجع أيضا مقال صاحب هذه السطور : (بين التاريخ والتحديث) ملحق بكتاب فى فلسفة التاريخ ٠

ومن ذلك أيضا حديث رؤية النبى عليه الصلاة والسلام للجنة والنار على حائط أمامه وهو يصلى بأصحابه صلاة الكسوف ، ولما كان الحائط لا يتسع لهما على تقديـــر الوجود الحقيقى ـ وان كانت عبارة (على حائط أمامه) لم ترد فى الصحاح الستة وانما ذكرها ابن الاثير فى النهاية ، فانمـا كان ذلك على سبيل التخييل ٠

واذا كانت المعتزلة تنكر الوهم أو التخييل الا فى المنام أو عنـد تغـير العقل من مرض أو غيره ، فانه قد ورد فى قوله تعالى : « يخيل اليه منسحرهم أنها تسعى » فرؤية مالا وجود له فى الحقيقة ممكن فى حال اليقظة ومع صحة العقل ، انه من المتواتر عن أرباب الرياضات وملازمى الخلوات أنهم يرون فى اليقظة مثل ما يراه الناس فى النوم ، ويسمعون مخاطبات من غير رؤـية مخاطب ، ولم تنكر ذلك الفلاسفة مع دعواهم الاستناد الى العقـــل فى كل رأى لهم(١١) ٠

ومن ذلك ايضا حديث : (يؤتى بالموت على صورة كبش يوم القيـامة فيذبح) ، فظاهر الحديث مخالف للعقل عند اهل الكلام لأن الموت عنـــدهم عرض ولا يستحيل العرض جسما ، ويمكن تأويل الحديث ، انه لثقـــة أهل الجنة فى الخلود وفى حياة لا موت بعدها ـ يخيل اليهم ذلك ، أو أن الرسول قد ضرب مثلا بذلك على الخلود ٠

فلا مبرر لسخرية بعض أصحاب الكلام واستهانتهم بما يخالفظاهره العقول ، وخاصة أن البحث والتأويل من جليات الأمور عند أهل العقول ، وان أعرض أهل الأثر عن التأويل فما ذاك عن تبلد ذهن ، ولكنهم رغبوا فى الاتباع وكرهوا الابتداع وعضوا بالنواجـذ على الاقتـداء(١٢) ٠

وفى جميع المواقف لا يصح اتهام رجال الحديث بتعمـد الكذب ، لأنهم المرجع فى علم الحديث ، واذا كان الرسول قد نهى عن تكذيب أهـــل الكتاب خوفا من تكذيب الصدق ورد الحق فأولى ألا يرد أهل الحديث ٠

---

(١١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥٦ ٠
(١٢) نفس المرجع ص ٥٢ ٠

ان الخطأ فى القول أهون من الخطأ فى الرد ، اننا متى أخطأنا فى القبول كان تصديقنا للنبى موقوفا على شرط صحة الحـــديث ، ومتى أخطأنا فى التكذيب كان ذلك تكذيبا لكلامه ، والخطأ فى القبول كذب عليه بينما الخطأ فى الرد تكذيب بكلامه ، ورد رجال الحديث تفسيق لهم بينما فى التأويـل تصديق لهم ، وتصديق المسلمين أولى من تفسيقهم ٠

تعقـــــيب :

الخصومة بين المعتزلة والمحدثين تمثل فى حقيقة الأمر ذلك التعارض بين العقلية الناقدة والعقلية الحافظة ، ومع أن العصر الاسلامى قـد عـرف رجالا جمعوا بين صنوف من الفـكر متبـاينة كالطب والفلسفة والموسيقى الا أنه لم يكن بين الحفاظ فلاسفة كما لم يكن بين القراء متكلمون(*) ، ومن ثم لا ينبغى أن يتهم الحفاظ بالجمود لتركهم التأويل ، ذلك ما أوافق ابن الوزير عليه ، ولكن يبقى دورهم فى أنهم أمناء على حـــديث رسول الله ، فلا ينبغى أن يتجاوزوه الى آراء تعد من مسائل الكلام فذلك ما أثار عليهم بعض المتكلمين وبخاصة اذا شاب آراءهم شىء من الحشو أو التشـــبيه كمـا هو قائم لدى الكرامية والحشوية ٠

ويرى ابن الوزير أن أهل الحديث لا يصح أن يؤاخذوا بجريرة هؤلاء كما لا يصح ن تؤاخذ الزيدية بأقوال المطرفية ، والقياس مع الفارق ، لأن الزيدية قد طردت وتبرأت من المطرفية بينما الحشوية محسوبة على بعض رجال الحديث ، فلا يقول زيدى برأى مطرفى بينما يؤمن بعض رجال الحديث بحشو الاعتقاد ولم يتبرأ منه سائر المحدثين وان كانوا لا يرون رأيه ٠

على أنه لاينبغى للمتكلمين أن يتسرعوا فى رد الأحاديث لمجردمعارضتها لآرائهم أو مخالفة ظاهرها للعقل ، أذكر أن النظام ــ من كبار المعتزلة ــ قـــد

(*) ومن الملاحظ بين العلمـاء أن الذين جمعـوا بين شتى علوم الدين وبين الكلام أو الفلسفة كالغزالى والرازى لم يكونوا من الحافظين أو المحدثين بينما أعرض الذين غلبت عليهم دراسة الحديث الى جانب علوم الدين عن الفلسفة والكلام كالسيوطى ، فنجد مفسرا متكلما متفلسفا ولكنه غير محدث كالرازى ، ونجد مفسرا محدثا ولكنه غير متكلم ولا متفلسف كالسيوطى ٠ فالخصومة بين المعتزلة والمحدثين مظهر للتعارض بين عمق التفكير وبين قوة الذاكرة غير أن هذا لا يبرر الطعن أو الاتهام بالكذب أو الجمود ٠

تسرع برد الحديث : (لا تشربوا من أفواه القرب) قائلا وماذا فى أفواه القرب حتى لا نشرب منها ، حتى سمع أن رجلا شرب من فــاه قربة فلدغته حيــة فمات ، فندم على تسرعه برد الحديث ٠

بقى أن نذكر لابن الوزير هذا الموقف المجيد فى الدفاع عن أهل الحديث لا رد اعتبار لهم فحسب وانما لأن موقفه يشكل خطوة رائدة فى التقارب بين الزيدية وأهل السنة ٠

واذا كان الحديث قــد لقى فى الآونة الأخيرة طعنا وتشكيكا كما لقى رجاله تكذيبا وتجريحا فان آراء ابن الوزير ما زالت عبر سبعة قرون تشكل أقوى دفاع وأبلغ دليل ، « ومثــل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » ٠

د٠ أحمد محمود صبحى
أستاذ الفلسفة الاسلامية
كلية الآداب ـ جامعة صنعاء